

## هل التاريخ علم؟

لم يقف اختلاف الباحثين عند حد التباين في تفسير مفهوم التاريخ ونطاقه بل امتد الى النظر الى كونه علما وادبا او كلا الاثنين، وظل هذا الامر مدار خلاف بين المؤرخين أنفسهم وبينهم وبين المختصين بالعلوم الاخرى، لاسيما العلوم الطبيعية، ولعل من أبرز المنادين بعلمية التاريخ وانه ليس فرعا من الادب، هو بيوري (J. B. Bury) الذي يعد من أشهر مؤرخي انكلترا في الربع الاول من القرن العشرين، فقد أعلن في احدى محاضراته في جامعه كمبرج (Cambridg) عام ١٩٠٣م: " ان التاريخ علم لا أكثر ولا اقل "، ولم يقبل الفلاسفة الطبيعيون بهذه المقولة وانبروا ليثبتوا ان التاريخ دون العلم بكثير، لان مادته تختلف عن مادة العلوم التي يشتغلون بها من حيث كونها غير ثابتة ولا قابلة للتحديد، ويرى هرنشو ( F. J. C. Hearnshaw) انه على الرغم من اننا لا يمكننا ان نستخلص من التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية ، فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم ..ويكفي في اسناده صفة العلم الى موضوع ما ، ان يمضي الباحث في دراسته مع سعيه الى توخي الحقيقه وان يؤسس بحثه على حكم ناقد أطرح منه هوى النفس وباعد نفسة عن كل افتراض سابق مع امكان التصنيف والتبويب فيه ... وهناك اعتراضات اخرى نادى بها هؤلاء العلماء لدحض علمية التاريخ التي اشار اليها هرنشو (F. J. C. Hearnshaw) وهي تتلخص فيما يأتي:

١. ليس من الميسور معاينة وقائع التاريخ معاينة مباشرة.
٢. ان الاختيار والتجربة أمران غير ممكنين في الدراسة التاريخية.
٣. لا يمكن ان تصل في التاريخ الى التعميم او القوانين العلمية، لان كل واقعة من التاريخ قائمة بذاتها.
٤. ان مادة التاريخ مركبة تركيبيا لا نهاية له، وليس ثمة اتفاق بين المؤرخين على ما هو هام من الوقائع وما ليس بهام.
٥. أن عنصر المصادفة يهدم كل تقدير سابق ويحبط كل محاولة ترمي الى استباق الاحداث والاخبار بيها قبل وقوعها.

والحقيقة ان محاولة إطلاق كلمة (علم) على التاريخ او نفيها عنه، تعتمد على تحديد معنى العلم، فاذا ما عرف تعريفاً "ضيقاً"، بحيث يقتصر بالدرجة الاولى على العلوم الطبيعية، " العلم اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعها وحدة عامة على هيئة مبدأ او قانون يمكننا على وجه اليقين من التنبؤ بحدوث وقائع مشابهة للوقائع المذكورة في ظروف معينة "، فأن التاريخ لا يمكن ان يكون علماً" استنادا الى هذا التعريف، ويشارك التاريخ في هذا الامر علوم اخرى، ينقصها عنصر مهم من مستلزمات العلوم الطبيعية ذلك هو التجارب المختبرية مثل علم الارض (الجيولوجيا)، وعلم الفلك اللذان لا يمكن للباحث فيهما ايضا ان يجرى تجاربه في المختبر، فالجيولوجي مثلا لا يستطيع ان يجرى التجارب المختبرية على الحركات الجيولوجية التي حدثت في الماضي، بل ان كل ما يستطيع عمله هو ان يدرس الاحوال الحاضرة للأرض فيستنتج منها تأريخها، كذلك لا يستطيع الفلكي أن يخضع الظواهر الفلكية التي يدرسها الى التجارب والاختبار، لأنها خارج نطاق سيطرته، لكنه يعتمد على رصد وملاحظة تحركات الاجرام السماوية في منهج بحثه العلمي، ليستخرج منها الحقائق والقوانين التي تحكمها.

ويقول هرنشو (F. J. C. Hearnshaw) ان التاريخ ليس علم تجربة واختبار ولكنه علم نقد وتحقيق لا يشبه علم الفلك، الذي يقوم على المعاينة المباشرة ولا الكيمياء الذي هو علم تجربة واختبار، ولعل أقرب العلوم الطبيعية شبيهاً به هو علم الجيولوجيا، فكما ان الجيولوجي يبحث في احوال الارض في الوقت الحاضر ليعرف ماضيها، كذلك المؤرخ يدرس الاثار المتخلفة عن الماضي ليفسر ظواهر الحاضر، ويجد الجيولوجي مادته الأساسية فيما سلم من نفايات الطبيعة من أدلة يمكن ان تثبت التطورات الجيولوجية القديمة، كذلك يعتمد المؤرخ في الاحداث الماضية على الاثار المادية او الوثائق والسجلات والتقاليد التي سلمت من عوادي الزمن، وهذه الحقائق المحسوسة الحاضرة هي التي ينصب عليها عمل المؤرخ وهي مادة عمله وتكمن قيمتها وأهميتها في دلالتها على الوقائع الماضية لا في ذاتها.

ويمكن أن يعد التاريخ علماً إذا ما عُرِفَ العلم تعريفاً "أشمل وأوسع من التعريف الضيق الذي سبقت الإشارة اليه فالعلم هو: معرفة تراكمية او نشاط عقلي يتوخى الكشف عن الظواهر المادية وغير المادية في العالم وبعبارة اخرى مجموعة منظمة من المعارف والحقائق التي أمكن التوصل اليها بمنهج خاص من البحث والتحري والملاحظة والتحقيق، ولقد أشار الى هذا المعنى من العلم كل من لانجوا (C.Y.Langlois) وسينو بوس (C.Seignobos) في مقدمة كتابهما (المدخل الى الدراسات التاريخية) فقالا بأن "التاريخ علم ما في ذلك ريب، لأننا نستطيع ان نطلق كلمة (علم) على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث

في نوع واحد معين من الوقائع فهو علم الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في (مجتمع) خلال توالي الأزمنة في (الماضي) ... " ان العلم هو الكشف عن حقيقة الاشياء وهذا هو المعنى الذي نقصده من قولنا ان التاريخ علم... فالتاريخ هو العلم الخاص بالجهود الإنسانية، او هو محاولة تستهدف الاجابة عن الأسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي ".

ان الذي يدعو الباحثين الى توكيد الجوانب العلمية للتاريخ هو انه يشارك العلوم الاخرى، بان له منهجا" وطريقة خاصة به للبحث تمكنه من جمع مادته وحقائقه، وهذه الطريقة او ان المنهج هو ما يسمى بمنهج البحث التاريخي (*Historical Method*) وهو يعني تحري الحقائق والاهتمام الدقيق بالتعمق في تحليل المصادر والبحث في سجلات الماضي ومخلفاته وقراءة الكتابات القديمة ودراسة المخطوطات وانواع الوثائق التي خلفها الماضي، سواء كانت اكانت بقايا مادية ام مدونات تاريخية، وحينما يتبع المؤرخ هذا المنهج عليه ان يثبت بشكل لا يقبل الشك من صحة هذه الوثائق، ودقة روايتها والمستوى العقلي والخلقي لكتابتها، وأنها تعود بالأصل الى الماضي فعلا، وان عباراتها قابلة للتصديق، وهذه الطريق العلمية التي تجعل الشك اول مراتب اليقين، هي التي تؤكد علمية التاريخ ومنهجه، لان شك المؤرخ هو رائد حكمته، ولهذا فقد استحق التاريخ لقب العلم، لاسيما في منهجه الذي " ينظر الى الاحداث ويحللها ويقارن بينها ويحقق الروابط القائمة بينها، والمؤرخ يبحث عن الحدث ويدركه بدرس النصوص بإمعان ودقة والطريقة واحدة في كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة ".

ولكن المؤرخ لا يقتصر على جمع الحقائق ونقدها وتحري صدقها بالطرق العلمية فحسب، بل يتعدى ذلك الى عرض هذه المادة التي جمعها واثبت صحتها والى تناولها بالتفسير والتأويل والاستنتاج، وهذا يتطلب مواهب اخرى، لا ينهض بها الا من أوتي خيالا" علميا" واسعا" قادرا" على التحليق في اعلى الاجواء، دون ان يخرج من اضيق حدود الحقيقة، ولا بد للمؤرخ هنا من الاستعانة بالأدب الذي هو المعبر عن رغبات الانسان وأمانيه والذي يزوده ببصيرة نافذه شديدة المرونة والعمق في أمور العقل الانساني، ويجب على المؤرخ ان يوازن بين العلم والادب في كتابته لأنه " إذا تغلب الادب على المؤرخ لاهماله العلم، أو إذا تغلب عليه العلم لاهماله الادب، جاءت الصورة التي يرسمها للإنسانية ملتوية مشوهة فتدوين التاريخ يقترب من الكمال بقدر ما بين المعرفة والفن من اتساق في العمل.

### صفات المؤرخ:

يتضح مما تقدم أهمية التاريخ وضرورة دراسته لما له من فوائد لا تتكرر من حل الكثير من مشاكل الحاضر المستقبل، فكيف يجب ان يُدرّس ويدرسُ التاريخ وما هو دور المؤرخ في هذا المجال؟ أو بالأحرى كيف يجب ان يقدم هذا التاريخ الى الاجيال؟ الواقع ان المهمة تقع بالدرجة الاولى على مسؤولية الذين يكتبون التاريخ ولكن هل يمكن ان نسمي كل من امسك قلمًا وحاول الكتابة في التاريخ مؤرخاً؟ يتصور بعض الناس أنهم يكتبون التاريخ طالما امسكوا بالقلم والقرطاس وسطروا الصفحات عن الاحداث الماضية وقد ينجح هؤلاء في ان يقدموا بعض الكتب والكراريس. ويملئوا رفوف المكتبات بالغث من المعلومات التي لا يمكن بحال من الاحوال ان ترقى الى الحقائق التاريخية لان المؤرخ الحق الجيد لا يمكن ان يؤدي واجبه وعمله على الوجه الاكمل الا إذا توفرت فيه صفات ضرورية تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته على أكمل وجه وبصورة قريبة أو مطابقة للواقع.

١- ان اول الصفات التي يجب توفرها لدى جميع الدارسين سواء كانوا مؤرخين أم غير مؤرخين هي حب المعرفة والصبر على تحصيلها، والجد والمثابرة في البحث والعمل، مهما كانت الصعوبات والمشاق التي تقف في سبيله ولا يجوز أن تكون ندرة المصادر او غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها واضطرابها، عائقا إمام رغبته الجامعة في البحث عن الحقيقة وينبغي على المؤرخ، كما يرى حسن عثمان. "ان يقضي الشهور والسنوات وهو يعمل ويرتحل من بلد لآخر في وطنه وفي كل مكان يمكن أن يعثر به على ما يفيد. وينبغي عليه الا يتسرع أو يقتضب تعجلا لنيل منفعة، لأن هذا سيكون على حساب العلم والحقيقة التاريخية " فالجد والمثابرة مزية في كل بحث علمي وهي مطلوبة بشكل خاص في البحث التاريخي لان الباحث المنتج هو الذي يروض نفسه على العمل الشاق المستديم وعلى الابتعاد عن الجلبة والضوضاء وعلى الصبر على ما يثيره البحث احيانا في النفس من شعور بالوحشة والغربة نتيجة لما تطلبه ظروفه من وحده وانزواء وتأمل.

٢- ويجب أن تتوفر للمؤرخ مزية الشك والنقد، فلا يجوز له ان يقبل كل الكلام او يصدق كل رواية أو أية وثيقة أو مصدر دون درس وفحص واستقراء، وقد بدأ التاريخ يتخذ فعلا صفة علمية منذ أن اخذ رجاله يشكون في الروايات التي نقلت إليهم بالسماع أو الكتابة، ومنذ أن عمدوا الى نقد رواياتها وحاولوا امتحان مضمونها ومهمة المؤرخ هنا تشبه كل من مهمة المحقق والقاضي فالأول يستنطق الشهود وجمع شهاداتهم وينقدها من اجل التوصل الى الحقيقة قبل اصدار الحكم ولا يستطيع كل من الاثنين ان يؤدي مهمته على وجهها الصحيح، إذا لم يأخذ هذه الروايات والشهادات بالشك والتحفظ، ولكن هذه الاصول القضائية مع ذلك ارحم من الاصول التاريخية كما يرى قسطنطين زريق لان المتهم برئ حتى تثبت ادانته في القضاء، ولكن في التاريخ الاتهام هو الاصل فكل نص مشكوك فيه الى ان تثبت صحته، وكل رواية متهمة الى ان

يقوم الدليل على صحتها ولا يمكن للمؤرخ أن ينجز عمله ،إذا لم يكن يتمتع بملكة النقد والشك ، لأنه يصبح بذلك مجرد شخص عادي ينقل كل ما يصله من اخبار دون تدقيق وتمحيص ويصدق كل ما يسمعه من روايات على انها حقيقة واقعة، وليس بهذا يدرس أو يكتب التاريخ ومن جهة أخرى يجب على المؤرخ أن يكون متزنا في شكه وواعيا في حسه النقدي أي بعبارة أخرى عليه الا يعالي في الشك والنقد الى درجة يمكن أن تفقده الاتزان في الحكم فالاتزان من صفات العلماء والمؤرخ هنا أحوج ما يكون اليها في عمله الذي يتناول النقد والتجريح ليكون حكمه صائبا في الوصول الى ما يبغيه من اتهام وتبرئة وصولا الى الحقيقة التاريخية.

**٣- ومن المزايا والصفات الأساسية للمؤرخ عدم التحيز والتجرد وهي مطلوبة في كل علم ومفروضة على كل باحث ولكنها أيسر تحقيقا في العلوم الطبيعية منها في العلوم الاجتماعية** فليس من اليسير على المؤرخ أن يتجرد عندما ينظر الى ماضي امته ونصيبها من الحضارة وما حققتة من انجازات أو ما أصابها من وهن وانتكاس، وقد حاول بعض المؤرخين الوصول الى هذا الهدف الصعب من أمثال رانكة زعيم المدرسة العلمية الحديثة في القرن التاسع عشر الميلادي الذي هدف هو واتباعه الى الموضوعية المطلقة والتجرد التام في عرض الوقائع التاريخية. ولكن ليس المقصود هنا بالتجرد صفته السلبية، التي تتضمن التخلص من كل شعور او فكر او معتقد فما من شخص يستطيع ذلك عمليا بل المطلوب من المؤرخ ان يحرر نفسه قدر المستطاع من الميل او الاعجاب او الكراهية لعصر من العصور أو لناحية تاريخية معينة ، وان ينفذ الى اعماق الافراد والجماعات الذين يكتب تاريخهم ويحس بأحاسيسهم جميعا، ويتفهم ظروفهم ويصير كأنه واحد منهم ينطق بأسمهم جميعا دون ان يلتزم أي فرد منهم او اي جماعة او امة من الامم دون سواها فهو بهذا يصل الى التجرد الايجابي المثمر، الذي لا يمكن ان يتخلى فيه عن معتقداته الأساسية ومواقفه الفكرية الاصلية ولكنه مع ذلك لا يتأثر في حكمه على الماضي بهذه المعتقدات، الامر الذي يجعل كتابته بعيدة عن التحيز لامتيل الى جانب على حساب الآخر مما يقربها الى الحقيقة المنشودة.

**٤- وينبغي على المؤرخ التحلي بالأمانة العلمية وأن يكون رائده حب الحقيقة وقولها** بشجاعة دون خوف او تردد فلا يكذب ولا ينتحل ولا ينافق اصحاب الجاه والسلطة ولا يخفي الوقائع والحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الاحيان والتي قد يكون في نشرها عدم رضا بعض الفئات من الناس الذين يعرفهم يمتون اليه بصلة معينة، ولا رقيب على المؤرخ في هذه الحالة سوى ضميره ومن يخرج عن هذه المبادئ سعيا وراء جاه، او انتفاع مادي او ارضاء لسلطة معينة لايمكن ان يعد مؤرخا"، ان الكشف عن بعض اخطاء الماضي والجوانب السلبية في تراث الامة القومي، يفيد الى حد كبير في السعي الى تجنب عوامل الخطأ في الوقت الحاضر، وربما يعد عدم الكشف عن بعض هذه الاخطاء تضليلا وبعدا عن المصلحة الوطنية

"قد يكون اخفاء الحقيقة التاريخية عملاً وطنياً في بعض الظروف". كما يقول حسن عثمان، حيث التجأت معظم الامم الى مثل هذا الاجراء، ولكن لا بد من اشهار الحقيقة بعد زوال الظروف القاهرة التي ادت الى اخفائها حتى يمكن الاستفادة، منها واستخلاص أكبر قسط من الحقائق التاريخية التي لا يمكن ان يكتب التاريخ دون الوصول اليها.

**٥- ومن الصفات الضرورية الاخرى للمؤرخ الشعور بالمسؤولية والتواضع ازاء ما يقوم به من اعمال وهو شعور يملأ نفسه نبلا ويدفعه الى المزيد من العطاء فلا يجوز ان يتصدى الانسان الى دراسة الماضي بروح العبث او عدم الشعور بدقة المهمة التي يقوم بها وخطورة نتائجها ، لان ذلك سيعود بأضعف النتائج والضرر على نفسه وعلى الاخرين لأن مهمة المؤرخ صعبة، وعرة المسالك ويجب عليه ان يدرك ذلك قبل سواه كما يجب ان يعلم ايضا انه مهما توصل الى نتائج ومهما حلل من أسباب فهو لن يستطيع ان يكشف الكثير من الامور التي ماتزال مجهولة امامه وهذا يقوده بالتأكيد الى التواضع الذي يسبغه العلم الصحيح، والذي هو صفة العلماء في كل زمان ومكان بهذا التواضع يرتفع العلماء الى اعلى المنازل، لا في مراتب العلم حسب بل في مراتب التقدم الانساني ذاته وحرى بالمؤرخ الذي لا تقل مهمته صعوبة عن مهمة أيا منهم ان يكون اكثرهم تواضعاً، وأعمقهم احساساً بالمسؤولية الملقاة، على عاتقه.**

**٦- وينبغي على المؤرخ ايضا ان يبتعد عن حب الشهرة والظهور والا يكتب من اجل الكسب او الحصول على الالقاب والمناصب، فهذه كلها أمور زائلة مؤقتة لا يمكن ان تدوم ولا يبقى سوى ما سطره المؤرخ فهو وحده الذي يكون حكما عليه وعلى ما أداه لأتمته وستعرف الاجيال اللاحقة ماهية الاسباب التي دفعته الى ما كتب والتي ادت به الى مزلق الانجراف وتحريف الحقائق او تزييفها لقاء مال زائل أو منصب عابر، ان مهمة المؤرخ الاساسية هي الكشف عن الحقيقة العلمية وهذا بحد ذاته يعدل كل انواع الكسب والالقاب والمناصب فيجب عليه أن يحرص على هذه الحقيقة وان يعكف على الدرس والبحث دون ان يوزع جهده في اعمال اخرى يمكن ان تؤدي الى ابتعاده عن هدفه الاساس من البحث.**

**٧- وعلى المؤرخ أيضا ان يكون "ذا عقل واعي مرتب منظم" فهو في هذا شأنه شأن بقية رجل العلم الذين يحتاجون الى هذه الصفة للتركيز على الحقائق التي بين ايديهم، والمؤرخ الذي يمتلك عقلية منظمة أقدر من غيره على تنسيق الحقائق وترتيبها، والافادة منها في الموضوع المناسب، كذلك يكون قادرا على تحديد العلاقة بين حوادث التأريخ في الزمان والمكان والربط بينها في اتساق وتناغم دقيقين وإذا ما افتقد المؤرخ هذه الصفة يصبح مشتت الافكار تضطرب في وجهه الاحداث وتختلط تفصيلاتها فيعجز عن الربط بينها ويفقد قابليته في البحث عن الحقيقة ووضعها في أطارها الصحيح ضمن سياق الاحداث التاريخية التي يدرسها.**

واضافة الى الفضائل والصفات الاخلاقية التي المحنا اليها سابقا ينبغي على المؤرخ

٨- ان يتحلى بالاحترام التام وعدم التسرع في مهاجمة اي باحث آخر ارتكب من اخطاء قبل دراسة الظروف التي ادت الى تلك الاخطاء ويجب ان يكون اسلوبه من الرد خال من اي تحامل، ولا يهدف الا الى خدمة الحقيقة التاريخية لا غير كذلك يجب أن يكون المؤرخ صاحب احساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال بالقدر الذي يتيح له ان يدرك اراء غيره ونوازع الاخرين و بذلك يكون قادرا على تلمس اخبار مختلف الشخصيات العالمية التي يتعامل معها وبحس ما اختلج في صدور هؤلاء الرجال من مختلف العواطف ويفهم بقدر المستطاع الدوافع التي تدفعهم لاتخاذ سلوك معين في الماضي وليستطيع كذلك أن يشارك رجال الامس مواقفهم في اثناء الساعات الحرجة من التاريخ مثل فترات الانتفاضات والثورات وحقب المقاومة وفي ظروف النجاح والفشل.